الحب عند العرب

بقلم جناب نسيم افندي بربارى

تابع ما قبلهُ

الشغف عند العرب * لم يترك العرب من ابواب الحب باباً الاَّ طرقوهُ او مذهباً الاَّ ذهبوهُ حتَّى رنَّ صدى عشاقهم في الآفاق وبلغت احاديثهم السبع الطباق . ويصعب على الاعجمي ان يصدِّق ان قومًا رُحَّلاً في البادية يرودون من الارض مفاوزها وصحاريها ويسكنون بيوت الوَبر ويعيشون بالغزو قد اشتهروا برقة العواطف وحسن الوفاء والثبات على الوداد والحب المقرون بالعفة والشهامة حتَّى صاروا مثلاً . وشغفهم اقرب الى الشغف المعروف الآن في اوربا واميركا من شغف اي شعب سواهم بل يفوقهُ لكونهِ فطريًّا طبيعيًّا لم يصطبغ بصبغة التمدن الحديث وعوائدهِ . وقد فات المؤلف الانكليزي سامحهُ الله ان يذكر شيئًا عن الشغف عند العرب ولعلَّ ذلك ناتج عن جهلٍ للغة العربيَّة او انهُ خاف من ان ذلك ينقض ما قالهُ سابقًا وهو ان الحب كما نراهُ مسطورًا في روايات المحدثين شعورٌ تولَّد حديثًا في الامم المتمدنة . ومهما يكن من الامر فعلى المنصف ان لا يبخس العرب مزيَّة اشتهروا بها وذهب كثيرون منهم شهداء في سبيلها

قال مؤلف كتاب صناجة الطرب في تقدمات العرب ما نصهُ

" لا يخفى ان اصل دواعي العشق في البادية هو ان نساء العرب في الجاهليَّة لم يكنَّ يتبرقعنَ لان البراقع للنساء امرٌ حادث في الحضر اوجبتهُ الشريعة الاسلاميَّة منذ أُنزلت آية الحجاب ومن ثمَّ امرت بعدم تمكن الرجال من رؤية النساء بل روى الاصبهاني انهُ في عهد الخلفاء العباسيين ايضًا ما كانوا يحجبون جواريهم ما لم يلدنَ . اما نساء البدو فلا زلنَ حتَّى الآن يظهرنَ امام الرجال منكشفات الوجوه . قال بعضهم ولذلك كانت البادية محل العشق وما يترتب عليهِ من الغزل ونحوهِ كالنوادر المذكورة في كتب الادب "

ويظهر مما تقدَّم ان بقاء الناس على فطرتهم الاصليَّة ادعى الى العشق او الشغف . واذا كان في الشغف تهذيب الاخلاق وتقوية الاميال الشريفة التي غرسها الخالق سبحانهُ وتعالى في نفس الانسان كما يذهب ادباء المغرب كان منتهى التمدن الحديث الذي وصل اليهِ اهالي اوربا واميركا هو الرجوع الى حال الجنس البشري الاصليَّة بتربية الذكور والاناث معًا منذ نعومة اظفارهم فيحمو كل فريق منهم وقد اختبر طباع الفريق الآخر واعتاد معاشرتهُ حتَّى

لا تعود تؤثر فيهِ تأثيرًا غير حميد

ومن بطالع اخبار عشاق العرب المشهورين كعنترة الفوارس وجميل بثينة ونصيب بن رياح وكُثيِّر عزة ومجنون ليلى وغيرهم ممن يعد ولا يعدّد و يقرأ اشعارهم يحكم بانهم مثل العشاق الذين يشير اليهم الاوربيون الآن في رواياتهم وانهم بلغوا في ذلك الغاية التي ما وراءها غاية · وقد ظهرت في شغفهم لوازم الحب الحديث المذكورة آنفًا ما لا يبقى معهُ ريب بانهم السابقون في هذا المضمار

ومقام نساء العرب في الهيئة الاجتماعيَّة في تلك الايام شبيهٌ جدًّا بمقامهنَّ الآن عند الاوربيين فكنَّ يجتمعنَ مع الرجال و يتناشدنَ الاشعار معًا في سوق عكاظ و يتفدنَ عليهم فيغتنمنهم · وكان للمرأة رأيٌ في قبول طالبها ورفضهِ (الَّا من اشتهر ان طالبها عاشقٌ لها فعند ذلك يمتنع اهلها من تزويجهِ بها لان العرب لم تكن تزوج عاشقًا) وكانت تبدي رأيها في مثل هذه الاحوال كما يتضح من قصة الخنساء اذ جاء دُريد بن الصمة اباها خاطبًا فلما سألها ابوها اجابتهُ "يا ابتِ اتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وقابلة شيخ بني جشم هامة اليوم او غد" وشاركن الرجال في حقوق الطلاق فكانت المرأة اذا ارادت طلاق زوجها فانما كانت في بيت من شعر حوَّلتهُ من المشرق الى المغرب او بالعكس او من اليمن الى الشام او بالعكس فيعلم الرجل ان امرأتهُ طلقتهُ فينصرف عنها . وهي حرَّة لم تصل اليها النساء الآن والَّا لرأينا رجالاً كثيرين يطوفون الارض ولا مأوى لهم

وقد ادرك العرب مضار الزواج بين الاقرباء فكان الرجال يرغبون عن المرأة القريبة بدليل قولهم في المثل التراثب ولا القرائب وقال الشاعر

فتى ولدتهُ بنت عمٍّ قريبة فيضوى وقد يضوى رويد القرائب

اما الشغف العربي فبلغ اقصاهُ في بني عذرة حتَّى صار يضرب فيهم المثل فيقال الهوى العذري واعشق من بني عذرة · وقد نشأ منهم جميل وصاحبتهُ بثينة وعروة بن حزام وصاحبتهُ عفراء وكثيرون غيرهم ممن لم تبلغنا اخبارهم . وما انتهى الينا من اخبار هذه العشيرة حريٌّ بأن يناخر بهِ عشاق المغرب الذين اشتهروا في الروايات كروميو وجوليت · فقد جاء في تزيين الاسواق ان سعيد بن عنبة الهذاني قال لاعرابي حضر مجلسهُ من الرجل قال من قوم اذا عشقوا ماتوا فقالت جارية سمعتهُ عذريٌّ وربِّ الكعبة ثم سألهُ علة ذلك فاجاب لان في نسائنا صباحةً وفي فتياننا عفةً . وقيل لعروة بن حزام (وهو اول من بكى على الاطلال) أصحيح ما يقال عنكم انكم ارق الناس قلوبًا قال نعم والله لقد تركت

ثلاثين شاباً في الحي قد خامرهم الموت ما لهم داء الاَّ الحبّ . وقيل لعذري اتعدون موتكم في الحب مزيّة وهو من ضعف البنية ووهن العفيفة وضيق الرئة فقال اما لو رأيتم الحاجر البلج ترشق بالعيون الدعج من تحت الحواجب الزج والشفاه السمر تبسم عن الثنايا الغر كانها شجر الدرّ لاتخذتموها اللات والعزّى

ومن لطيف نوادرهم ان رجلاً سيئاً من بني عذرة يدّعي العشق صحب جميلاً فقال جميل فيه

وقد رابني من زهدم ان زهدماً يُشَدُّ على خبزي و يبكي على عَمْلِ
فلو كنت عذريّ العلاقة لم تكن سيئاً وانساك الهوى كثرة الاكلِ

وقال شاعرهم

اذا ما نجا العذري من ميتة الهوى فذاك وربّ العاشقين دخيل

ومزايا الحب الحديث ظاهرة اشدّ الظهور في الشغف العربي القديم كما يتضح من اشعار عشاقهم . فالانتخاب الفردي او الشخصي لم يكن عندهم اقلّ ممّا هو اليوم في شغف الاوربيين والاميركيين بل ربما كان اكثر منهُ . والثبات الذي اظهرهُ العرب في ودادهم لم يُرَ لهُ نظيرٌ في هذه الايام . حكي عن جميل بثينة انهُ بقي يشبب بها عشرين سنة بعد زواجها الى ان مات وكذلك مجنون ليلى وتوبة بن الحمّير صاحب ليلى الاخيليّة وغيرهم وقد ثبت هؤلاء في حبهم وصبروا على نوائب الزمان واحتملوا من اللوم والتقريع والعذل والاضطهاد ما لا مزيد عليهِ وقضى اكثرهم شهداء في هذا السبيل . قيل ان ابا مجنون ليلى عاب ليلى ذات يوم امامهُ ولامهُ في حبها ووصفها بانها شنعاء قوهاء فاجابهُ

يقول لي الواشون ليلى قصيرة فليت ذراعاً عرض ليلى وطولها
وجاحظة قوهاء لا باس انها مني كبدي بل كل نفس وسولها
فدق صلاب الصخر رأسك سرمداً فاني الى حين الوفاة خليلها

وقال ايضاً من ابيات

ولو اصبحت ليلى تدبُّ على العصا لظلَّ هوى ليلى جديداً اوائلهْ

وقال عنترة من قصيدة طويلة قالها وهو في سجن المنذر ابن ماء السماء وكان قد خرج الى العراق في طلب النوق العصافريّة مهرًا لعبلة

لقد ودّعتني عبلة يوم بينها وداع يقين انني غير راجعِ
وناحتْ وقالت كيف نصبح بعدنا اذا غبت عنا في القفار الشواسعِ

وحقك لا حاولت في الدهر سلوة ولا غيرتني عن هواك مطامعي
فكن واثقاً مني بحسن مودة وعش ناعماً في غبطة غير جازع
فقلت لها يا عبل اني مسافر ولو عرضت دوني حدود القواطع
خلقنا لهذا الحب من قبل يومنا فما يدخل التفنيد فيه مسامعي

والعفة ظاهرة في الشعف العربي ظهور الانتخاب الفردي فيه فكلُّ العشاق المار ذكرهم قد اقتصروا في حبهم على عشيقاتهم وعشيقاتهم اقتصرنَ عليهم مع تزويج آبائهن اياهنَّ بغيرهم. قيل انهُ لما نعي جميل الى صاحبته بثينة خرجت مكشوفة تقول

وان سلوّي عن جميل لساعة من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر اذا متَّ بأساء الحياة ولينها

وصرخت وصكّت وجهها وخرّت مغشيًّا عليها ولم يسمع منها غير هذين البيتين الى ان ماتت. ومراثي ليلى الاخيلية في توبة اشهر من ان تذكر

وقد حملت الغيرة عشاق العرب على ركوب الاهوال واقتحام المنايا اذ لم يكن لهم سوى السيف لفصل الخطاب فيها. قال البراق بن روحان عند افتتاحه مدينة عرنة يخاطب برد الذي كان قد اخذ ليلى ليقدمها للملك شهريه

ألبلى وانتِ القصد قد غالك الثوى وفعل لئيم يا ابنة القوم سابق
فمن مبلغ برد الايادي وقومهُ باني بثاري لا محالة لاحقُ
ستبعدني بيض الصوارم والقنا وتحملني النب العتاق السوابقُ
على مركب صعب المراقي لاجلها وتنهضني للمهلكات الحقائقُ

واشعار عنترة في هذا المعنى اكثر من ان تذكر

اما الدلال والصد فهما من مخترعات الحضريات بخلاف فتيات العرب اللواتي كنَّ على فطرتهنَّ الاصليَّة يظهرنَ ما يضمرنَ من الحب والهيام لا يخنَّ في ذلك لومة لائم ولا عذل عذول. ومَن يا ترى ينكر على ليلى العامريَّة قولها

اذا ذكر المجنون زالت بذكرهِ قوى النفس او كاد الفؤاد يطيش

وقولها وقد نوعدها قومها بقتلها وقتلهِ اذا لم تنتهِ عن ذكرهِ

توعّدني قومي بقتلي وقتلهِ فقلت اقتلوني واتركوهُ من الذنبِ
ولا تقتلوهُ بعد قتلي ذلةً كفى بالذي يلقاهُ من سورة الحبِّ

ولم يكن عشاق العرب دون غيرهم في الشهامة والتعرض للمخاطر ارضاء لعشيقاتهم. قال

عنترة العبسي في هذا المعنى

انا العبد الذي خُبِّرتَ عنهُ ... رعيت جمال قومي من فطامي
اروح من الصباح الى مغيبٍ ... وارقد بين اطناب الخيامِ
اذل لعبلةٍ من فرط وجدي ... واجعلها من الدنيا اهتمامي
وامتثل الاوامر من ابيها ... وقد ملك الهوى مني زمامي

وقال ايضًا

دعني اجدَّ الى العلياء في الطلب ... وابلغ الغاية القصوى من الرتبِ
لعلَّ عبلة تضحي وهي راضيةٌ ... على سوادي وتحو سورة الغضبِ
اذا رأت سائر السادات سائرة ... تزور شعري بركن البيت في رجبِ

ولم يكونوا دون غيرهم في الايثار على النفس حتَّى جرى على لسانهم قولهم فديتك وفدتك نفسي وما اشبه . قال جميل في رائيته

تجود علينا بالحديث وتارةً ... تجود علينا بالرضاب من الثغرِ
ولو سألتْ مني حياتي بذلتها ... وجدتُ بها ان كان ذاك من امري

وقال قيس

عنا الله عن ليلى وان سفكتْ دمي ... فاني وان لم تجزني غير عاتبِ

وامثال ذلك اكثر من ان تحصى

واما الشعور المتبادل فقال مجنون ليلى فيهِ

يقولون ليلى بالعراق مريضة ... فيا لك لا تضنى وانت صديقُ
شفى الله مرضى بالعراق فانني ... على كل مرضى بالعراق شفيقُ
فان تكُ ليلى بالعراق مريضة ... فانيَ في بحر الحتوف غريقُ

وما لطف ما قالهُ بعضهم

الى الطائر الشَّرا نظري كل ليلة ... فاني اليهِ بالمحبَّة ناظرُ
عسى يلتقي طرفي وطرفكِ عندهُ ... فنشكو اليهِ ما تكنُّ الضمائرُ

وقال غيرهُ

قد حسَّنَ الله في عينيَّ ما نظرت ... حتَّى ارى حسنًا ما ليس بالحسنِ

وكان عشَّاق العرب يناجون الريح التي تهب من جهة الحبيب والبرق الذي يومض في انحائهِ و يبكون على اطلالهِ و يتغزَّلون بكل شيء لامسهُ حتَّى الرخم بعيرهِ . قال عنترة

يخاطب غراب البين

وخبِّرْ عن عُبَيْلة اين حلّت وما فعلت بها ايدي الليالي
فقلبي هائم في كل ارضٍ يقبل اثر اخناف الجمالِ

وقال وقد بلغ الغاية في شدة الشعور والرقة

يا عبل لا اخشى الحمام وانما اخشى على عينيك وقت بكاكِ

والفخر في الظفر وفقدان الشعور ظاهران في شغف العرب فان من عشاقهم مَن كان اذا ذكرت له محبوبته خرّ مغشيًا عليه

اما المغالاة والتطرف فتقدم الاعراب راسخة فيها وغيرهم مقلِّد ومتصّر. ومن يتصفح الاشعار العربيّة يراها مشحونة بالمبالغات مسبوكة في قالب بديع حتّى تنضل على الحقيقة. ولا بدّ من ان العرب القدماء كانوا واسعي التصور اذا طار طائر فكرهم حلّق في سماء الخيال ولم يحصُرهُ حدٌّ حتّى صاروا يقولون اعذبُ الشعر اكذبهُ - ومن يسمع قول كثير عزة

ايا عزّ لو اشكو الذي قد اصابني الى ميتٍ في قبره لبكى ليا

وقول مجنون ليلى

فلو انّ ما بي بالحصا فلق الحصا وبالصخرة الصماء لا تصدع الصخرُ
ولو انّ ما بي بالوحوش لما رعت ولا ساغها الماء النميرُ ولا الزهرُ

وقول توبة بن الحمير

ولو ان ليلى الاخيليّة سلمت عليّ ودوني جندل وصفائحُ
لسلمت تسليم البشاشة اوزقا اليها صدى من جانب القبر صائحُ

ولا يقول كما قال ابن عياض "لو رزقني الله دعوةً مجابةً لدعوت الله بها ان يغفر للعشاق لان حركاتهم اضطراريّة لا اختياريّة"

ويطول بنا المقام لو اردنا استيفاء الكلام على ما في اشعار العرب من المغالاة في وصف محاسن المحبوب ووصف الشوق والهيام فاشعارهم متداولة بين ايدينا تشهد بما لهم من طويل الباع في ذلك

الجمال . تختلف اذواق الناس فيه بحسب اختلاف الاقاليم والبلدان على ان الذوق العربي في الجمال لم يكن دون الذوق الاوربي اليوم بل كان ارفع منهُ لان الافرنج يكتفون بمحاسن الوجه واليدين اما العرب فلم يتركوا عضوًا من الجسم الّا وصفوهُ بابلغ ما يمكن ان يقال فيهِ قال عنترة يصف عبلة

اغنّ مليح الدل احور اكحل ازج نقي الخد ابلج ادعجُ
لها حاجب كالنون فوق جفونها وثغر كزهر الاقحوان مفلجُ

وقال ايضاً

فولّت حياء ثم ارخت لثامها وقد نثرت من خدها رطب الوردِ
مرخة الاعطاف مهضومة الحشى منعمة الاطراف مائسة القدِ
يبيت قنات المسك تحت لثامها فيزداد من انفاسها ارج الندِّ
ويطلع ضوء الصبح تحت جبينها فيغشاهُ ليل من دجى شعرها الجعدِ
شكا نحرها من عقدها فتظلمت فواعجبًا من ذلك النحر والعقدِ

وقبل ارسل الحرث بن عمرو ملك كندة امرأةً من كندة لتخبر له جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها فلما رجعت اليهِ سألها ما وراءك يا عصام فقالت صَرَحَ المخض عن الزبد رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك كاذناب الخيل ان ارسلنهُ خلتهُ السلاسل وان مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل وحاجبين كأنما خطّا بقلم او سوّدا بفحم تقوسا على مثل عين ظبية عبرة بينهما انف كحد السيف حنّت بهِ وجنتان كالارجوان في بياض كالجمان شَنَّ فيهِ فمٌ كالخاتم لذيذ المجس فيهِ ثنايا غرٌ ذات أشر تقلّب فيهِ لسانٌ ذو فصاحة بعقل وافر وجواب حاضر تلتقي فيهِ شفتان حمراوان تحلبان ريقًا كالشهد اذا دُلِك في رقبة بيضاء كالفضة رُكّبت في صدر كصدر قنال دُمية وعضدان مدمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عَظمٌ يُمَسّ ولا عرقٌ يجسّ رُكّبت فيهما كفان دقيق قصبها لين عصبها تعقد ان شئت منها الانامل الى آخر ما وصفت. ولو جمعت كل تشابيه كتاب الاوربيين والاميركيين وما قالوهُ في وصف الحسن ما بلغت معشار ذلك

وقد طلبنا في المقالة السابقة ان يكون النوع الثاني عشر من لوازم التعفف الذي لم يهتدِ الناس بعدُ اليهِ محبة الصحة الجيدة حتّى تمنع النساء عن الازياء الضارّة التي اعدمتهنّ الجمال واعتدال القوام . ولا يخفى ان تكوين الجسم الطبيعي اجمل كثيرًا مما صار اليهِ بعد ان عصبَ وقيّد حتّى استدقّ ودليلنا على ذلك هو ان التماثيل اليونانيّة القديمة التي لم يأتِ المتاخرون بمثلها تمثل الجسم البشري كما هو بتمام تناسق اعضائهِ الطبيعي وجمالها قائم بذلك . وكأن العرب اهتدوا الى هذا الامر ولم يتركوا لاهل هذه الايام شيئًا يكتشفونهُ . قال المتنبي

ما اوجه الحَضَر المستحسنات بهِ كاوجه البدويات الرعابيبِ

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوة حسن غير مجلوبِ
افدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجبِ
ولا برزن من الحمام مائلةً اوراكهنّ صقيلات العراقيبِ

نابغة الحسّاب

وبحث جديد في النفس

هو رجل اسمهُ جاك انودي ولد في انوراتو بايطاليا في الثالث عشر من اكتوبر سنة ١٨٦٧ من ابوين فقيرين . وكان يرعى الغنم في حداثتهِ وتعلّم العد من الواحد الى المئة وهو في السادسة من عمرهِ ولم يبلغ السابعة حتّى صار يضرب الاعداد بعضها في بعض ويستخرج حاصلها في ذهنهِ ولو كانت منازل كلٍّ من المضروب والمضروب فيهِ خمسًا ذلك وهو يجهل القراءة والكتابة ورسم الارقام . وجاء مدينة باريس سنة ١٨٨٠ وعرضهُ العلّامة بروكا على الجمعيّة الانثروبولوجيّة كنابغة من نوابغ الزمان

وتعلّم حينئذٍ القراءة والكتابة ومبادئ بعض العلوم وقويت قوة الحساب التي فيهِ حتّى بلغت حدًّا يفوق التصديق فانك اذا طرحتَ عليهِ مسألة حسابيّة يستوعبها منك جيدًا ويقول فهمتها ثم يتبصر فيها قليلاً وهو يحسّ همسًا يكاد يكون غير مسموع الى ان يصل الى الجواب فيذكرهُ صحيحها كأن امهر الحسّاب استخرجهُ بالقلم والقرطاس . ومن غريب امرهِ انهُ يحسب وهو يتكلّم في مواضيع مختلفة ويُسأل ويجيب ولا يعيقهُ ذلك من اتمام الحساب واستخراج الجواب . ويمتاز على غيرهِ في سرعة ايجاد الجواب وفي سهولة حلّهِ للمسائل العويصة الكبيرة فقد قيل انهُ جمع سبعة اعداد في كل منها عشرة ارقام وذلك في بضع ثوانٍ واستخرج الجذر السادس او السابع من عدد كثير المنازل في زمن قصير جدًّا وسُئل كم ثانية في ١٨ سنة وسبعة اشهر و ٢١ يومًا و ٣ ساعات فاستخرج الجواب في ثلاث عشرة ثانية من الزمان

وسألهُ المسيو شاركو الشهير مسألتين متشابهتين في القسمة فاستخرج جواب الواحدة بذهنهِ وجواب الاخرى بالقلم وقاعدة القسمة العادية ولكنهُ استخرج جواب الاولى في ربع الوقت الذي اقتضى لاستخراج جواب الثانية

وقاعدة الحساب عندهُ الضرب حتّى في القسمة والتجذير فانهُ يجريها بالضرب اي انهُ